

العادات و المعتقدات في الأغنية الشعبية الأوراسية _ قراءة في المضمون والوظيفة _

د. سعيدة ممزاوي

جامعة قاصدي مرباح _ ورقلة _

الملخص:

الأدب الشعبي من المجالات الخصبة والثرية بأشكالها الفنية المتنوعة التي لم تلق العناية الكافية، خاصة منها الأغنية الشعبية بلهجاتها المتباينة، بتباين المتغيرات اللسانية المنتشرة في ربوع الجزائر من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها. من هذا المنطلق تصدى هذا الموضوع للأغنية الشعبية بالأوراس الغربية، باستقراء مضامينها والوقوف على أهم عادات ومعتقدات المجتمع الأوراسي، التي تتجلى في هذا الشكل الأدبي، محاولين استنباط أهم الوظائف المنوطة بالأغنية الشعبية خاصة منها الوظائف الضمنية الموعظة في القدم كالوظيفة الطقسية و السحرية . لهذا اتبعنا المخطط الآتي:

- 1- تحديد المفاهيم : - تعريف الأغنية الشعبية - تعريف العادات والمعتقدات الشعبية
- 2 - استقراء جملة من الأغاني واستنباط أهم عادات ومعتقدات المجتمع الأوراسي .
- 3- أهم وظائف كل نوع من الأنواع الغنائية المنتشرة في الأوراس الغربي من خلال النماذج المدروسة .

Summary:

Popular literature is a rich and virgin field by its oral artistic forms that were not given much importance, particularly popular songs in varied dialects, in which the linguistic variables are diverse in Algeria from east to west and from north to south.

Basing on that the topic dealt with popular songs in western Aures region, through checking their contents and though discovering the main habits and conviction in that community that seems to be vehicular by this literary form, we aimed at picking up the old function, such as the magical sect function. For that we adapted the following outline.

- 1- Clarifying the concepts
 - Defining the popular song
 - Defining the popular habits and costumes
- 2- Studying some songs and picking up the main values and costumes of the Aurasi community
- 3- The main functions of each form of songs speeded in western Aures through the samples studied.

بالكلمة واللحن الشعبي... حافظت الأغنية الشعبية على التاريخ الثقافي للأمم والحضارات، ونقلت بكل صدق وأمانة خصوصيات المجتمعات البدائية والمتحضرة، عن طريق تصوير البنى الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، و أهدتنا فكرا شاهدا على مراحل التطور الإنساني عبر الأزمنة.

ولما كان الغناء إلهاما سجعت به الطيور قبل الإنسان، قلدها هذا الأخير، وركب على تناغميها كلامه الموزون المقفى، وقد عرف الإنسان الغناء أصواتا منغمة قبل أن يهتدي إلى الكلام، فعبر بالأصوات البسيطة، عما يجيش في صدره من دوافع اللذة والألم وميول الرغبة.⁽¹⁾

ونظرا لأهمية هذا الشكل الأدبي الشعبي، أفردت له جهود خاصة باعتباره يجمع ما بين الكلمة واللحن والأداء والرقص والآلات الموسيقية، ورغم ذلك ظلت الدراسات المقدمة في ضد الباب شحيحة مقارنة بالدراسات التي عنيت بأشكال أدبية شعبية أخرى. وأول خطوة نحو الاهتمام العلمي بهذا الشكل، كان بجمع الأغاني الشعبية وتصنيفها، منذ أن ألف "هردر" كتابه الشهير "أصوات الشعوب من أغانيها. سنة (1778م-1779م)، وقد ضم فيه الأغاني التي جمعها، ورأى أنها تعكس روح الشعب الألماني وتدل عليه أكثر من غيرها من ألوان التعبير الخاص.⁽²⁾

ونحن نؤيد "هردر" في هذا الرأي، كون الأغنية الشعبية تستوحي مادتها من اهتمامات الشعب، عاداته ومعتقداته، وكل ما يشكل أساسيات ذلك المجتمع. وعلى هذا الأساس، سنستقرئ مجموعة من الأغاني الشعبية بالأوراس الغربي، لمعرفة طبيعة العادات والمعتقدات التي تحويها، ووظيفتها الأصلية، وقبل أن نصل لإثارة هذه الإشكالية، نقف وقفة موجزة عند بعض المفاهيم التي لا بد منها في هذا المقام وهي: الأغنية الشعبية، العادات، والمعتقدات.

إن الغناء من الصوت، ما طرب به، قال حميد بن ثور:

عجبت لها أن يكون غناؤها فصيحاً ولم تغفر بمنطقها فما.⁽³⁾

أما الشعبي فهي صفة من كلمة "شعب" وتعني في اللغة ما تقسمت فيه القبائل، وجمعها شعوب وبالتالي فهي تأخذ الأمة ككل، وظل مصطلح "الشعبي" في جميع الأشكال الأدبية الشعبية، مصطلحا ينظر إليه بازدراء، لصيقا دائما بكل ما هو دنيء ورخيص - بالمفهوم الشعبي - رغم أن المعنى الأصلي للمصطلح عكس ذلك تماما، فهو يعني "مجموع الناس في الأمة على اختلاف طوائفهم ودرجاتهم وانتماءاتهم، فالأصل فيه مأخوذ عن التقسيم الاجتماعي للعرب الأقدمين الذي كان يبدأ بالأسرة وتسمى عندهم الرهط أو الفصيلة وحين ينضم عدد منهم إلى بعضه يكون العشيرة، ومن العشائر يكون

الفخذ ومن الأفخاذ تكون البطن ، والبطون تكون العمارة ومن العمارة تقوم القبيلة ومجموعة القبائل هي الشعب.(4)

ومن المهم أن نشير إلى أن الساحة الأدبية العربية ، لم تعرف مصطلح الأغنية الشعبية إلا حديثا ، بعد أن ترجم عن المصطلح الألماني (Volkleid) الذي قدمه (هردر) (5) ، ليتبناه في الأخير، الباحثون ويترجموه إلى مختلف اللغات ، ليدل على الأغنية الشعبية.

والأغنية الشعبية Folksong ، "هي تعبير يتيح لنا تصور شعب تبني أغنية كتبها، فلحنها وأداها أحد أبنائه ، وما كان بقاؤها المتوراث شفويا ، والتعديلات (أو التحويلات) الشعرية واللحنية، إلا اعترافا بأنها تتجاوز الزمن الأول الذي أنتجت فيه إلى زمن آخر.(6) يعني أنها تملك بذور تجدها، وتأفلما مع الأجيال المتعاقبة.

وإذا كانت الأغنية كلمة ولحنا ، فإن العادة الشعبية ممارسة ، فهي ظاهرة أساسية من ظواهر الحياة الاجتماعية والإنسانية ، وهي حقيقة أصيلة من حقائق الوجود الاجتماعي تتعرض لعملية تغير دائم، تتجدد بتجدد الحياة الاجتماعية واستمرارها ، تؤدي في كل طور من أطوار المجتمع وظيفة وتشبع حاجات ملحة.(7)

وتتداخل العادة والمعتقد الشعبي - غالبا- لأن مع كل عادة تبرز معتقد شعبي معين ، هذا الأخير الذي يظل خبيئ الصدر، يختمر فيها ، ليتشكل في صور متباينة ، مبالغ فيها أو مخففة ، يلعب فيها الخيال الفردي دوره ليعطيها طابعا خاصا.(8)

تعد العادة والمعتقد ، مرجعين أساسيين في تشكيل مادة الأغنية الشعبية بالأوراس الغربي، مستمدة منهما جل مواضيعها ، لذلك ظل هذا الشكل مرآة صادقة لقيم المجتمع وعاداته وأفكاره دون تزييف ، ولعله السبب الذي جعل الذاكرة الشعبية تحتفظ بمختلف الأنواع الغنائية ، منذ زمن بعيد، وظلت ترددها وتتفاخر بها، رغم انقضاء مناسباتها الأصلية (كالأغنية الثورية مثلا).

ومن أهم الأنواع الغنائية المنتشرة بالأوراس الغربي الأغنية الثورية وأغاني الأفراح (الختان، الزواج) ، أغاني استدرار المطر ، الأغاني الدينية وغيرها ، وقد اخترنا منها ما يناسب موضوعنا.

ومن الجدير بالذكر أن أغلب هذه الأغاني عريقة جدا تعود إلى ما قبل الاستعمار الفرنسي بكثير ، وهذا يعني كذلك عراقة العادات والمعتقدات التي تحويها بين طياتها، فقد حافظ أهل الأوراس على عاداتهم وقدسوها أيما تقديس حيث يحيونها مع كل مناسبة سارة ، ولم يتخلوا عنها أو يستبدلوها بأخرى ، رغم سياسة العنف والفرنسة التي حاولت فرنسا تكريسها، إبان احتلالها للجزائر .

وأولى هذه العادات التي تمسك بها أهل الأوراس إلى اليوم : عادة قص الشعر، التي نعثر عليها ماثلة في الأغاني الشعبية الأوراسية ، و هذه إحدى الأغنيات التي تصور تلك العادة :

يَا نَبِيَّ بَدُّ أَوْرَقْلٍ
بجاء النبي قف ، لا بهرب
سَالِخَسَ أَكَنْدَوْرُ
بَلَّلَ شَعْرَكَ لِنَقْصِهِ دَائِرِيَا

تستهل الأغنية بالمناداة على النبي - صلى الله عليه وسلم- تبركا به ، حتى يثبت الصبي في مكانه لقص شعره ، وهي عادة عريقة جدا ، عرف بها أهل الأوراس ، أين تعين على أهل الصبي تخصيص اليوم الأول من الاحتفال لهذه العادة ، فيتولى أعيان القبيلة أو العائلة (المسنون منهم)، قص شعر الصبي ، وبالمقابل تردد النسوة الأغنية السابقة مرات متكررة إلى غاية إنهاء العملية.

ورغم التطور الذي وصل إليه المجتمع في الوقت الحالي ، باعتبار توفر صالونات الحلاقة العصرية ، إلا أن سكان الأوراس ، ظلوا محافظين على هذه العادة لسنين عديدة ، حتى وإن كانت تقام في أحياء كثيرة بطريقة رمزية ، أين يؤخذ الطفل من قبل ذلك اليوم إلى الحلاق، ويتم الإعداد ليوم قص الشعر، تكريسا للعادة -لا غير- ولو رجعنا إلى العصور القديمة ، لوجدناها من الطقوس القديمة ، تعود إلى العصر الحجري الحديث ، حيث تتصف بطابعها السحري ، أين كانت فكرة الحجري فداء النفس للآلهة أو الكهنة أو السحرة ، الذين ينوبون عنها، فعلى الرغم من تحول الآلهة في هذا العصر إلى آلهة نباتية، ظلت الطقوس الدينية محتفظة بالمظاهر الحيوانية ، التي تميزت بها طقوس العصر الحجري القديم ، لاسيما بالنسبة للاقتران بالآلهة التي لها مظهر حيواني.⁽⁹⁾

وقد ثبت عن المجتمعات القديمة ، أنها كانت تخشى على شخصية الصغار من الانهيار، عند إقدامهم على صعاب الحياة خاصة في فترة الانتقال من الطفولة إلى الرجولة والنضج ، لذلك كانت تفرض عليهم نوعا من الاعتبارات القاسية ، للتأكد من استعدادهم على التحمل والصبر، لهذا يتوجب على الناشئ أن يفدي نفسه كأن تقصف أسنانه ، أو يختن في هذه المناسبة أو يقص شعره.⁽¹⁰⁾

وهذا يعني أن الأغنية تعبر عن وظيفة طقوسية قديمة ، عرفت عند شعوب مختلفة ، كانت تمارس هذا الطقس كوسيلة لفاء الطفل ، ومع مرور الزمن ، فقد الطقس وظيفته الأصلية ، ليتحول إلى مجرد عادة ، يحييها الأوراسيون في مثل هذه المناسبات.

إضافة إلى عادة قص الشعر ، نعثر على عادات أخرى في أغاني الختان ، كعادة تلبيس الطفل، ومن بين الأغاني الأوراسية التي تصور لنا عادات تلبيس الطفل وتحضيره لحفل ختانه ، أغنية تقول:

أخي جناح حمام	أوما ذافرْ نْ واذبيرْ
خلته فضة تمشي	حسبختْ دازرفْ يقورْ
ياربي احفظ أباه	أربي حفطاسْ باباسْ
وأطل في عمره كثيرا	طولاسْ ذ- لعمرْ لا بّاسْ

تردد هذه الأغنية- عند تلبيس الطفل لباس الختان -الأبيض اللون- فيشبهونه بجناحي حمام، يتبختر في خفة ورشاقة ، كأنه فضة رقراقة.

ومن الثابت عن الأمازيغ عموما ولعهم بمعدن الفضة ، وتفضيله في أحيان كثيرة عن الذهب، حيث يعتقدون أن له القدرة على درء العين والحسد عن صاحبه، لذا يشبهون الطفل بالفضة.

وقد عرف منذ القدم اتخاذ مثل هذه المعادن ، مادة لتعاويذ السحر ، وظلت عالقة في ذهن الإنسان الشعبي ردحا من الزمن ، ومعنى هذا أن معدن الفضة كان أساسا ذو وظيفة سحرية ، تتمثل في طرد الأرواح الشريرة ، واحتفظ بذات الوظيفة إلى اليوم ، كما تردد أغنية أخرى، بعد إكمال تلبيس الطفل- وتحضيره للختان تقول كلماتها:

أخي بلباس الحمام	أوما تكبرينْ نْ واذبيرْ
بين أتركابين	جارْ أتركابينْ

توظف الأغنية نفس الوصف الذي رد في الأغنية السابقة ، وهو تشبيه الطفل بالحمام، يجلس على مقعد النسيج ، ولعل توظيف الأغنية لمقعد النسيج ، يثير تساؤلنا عن مغزاه الحقيقي ، خاصة وأن الطفل المختن لا علاقة له بالمنسج أو أدواته ، ولكن عندما نعرف أن من بين الصناعات التي اختص بها العصر الحجري الحديث ، واختلطت منذ منشئها ، بعقائد وطقوس سحرية: النسيج حيث اقترنت كافة أدواته وأدوات الغزل ، في أذهان الناس بعوامل قد تسخر للخير أو لإحداث الأذى للآخرين، والأذى في هذه الحالة لا يعني عيني الحسود فحسب ، بل يعني الأثر السحري السيئ الذي قد يتركه العامل في نسجه.⁽¹¹⁾ جراء عقده لعقد القطعة النسيجية، وهكذا يتضح لنا أن الوظيفة الأصلية التي تضمنتها الأغنية هي وظيفة سحرية متعلقة بقدرة النسيج ، بكل أدواته جلب الخير ودفع الشر .

لذا تصور الأغنية الطفل جالسا على مقعد المنسج ، حفاظا على قدراته على الإخصاب وحماية رجولته وتحقيقا لفعل الإنجاب ، والغاية من هذا الجلوس هو تحصينه من الأذى بمختلف أشكاله .

ولا ينحصر ذكر المنسج وأدواته في أغاني الختان فحسب ، بل نجده كذلك حاضرا في أغاني الزواج ، حيث تردد الأغنية التالية أثناء تلبيس العريس:

أهْيُوي سُوْشَعْبُوبُ	الفتى ذو الشعر الطويل
بِيرِضْ أَعْلَاوْ لَكْبُوبُ	يرتدي برنوسا رفيعا
أَهْزَرَا يَمَّاسْ ذ- لَغْلُوبُ	كم قاست أمه
نَطْلَبُ رَبِّي أذ- نُوبُ	ندعو الله أن يعوضها

يحدد النص طبيعة المادة التي صنع منها البرنوس الذي يرتديه العريس يوم دخلته ، وهو برنوس مصنوع من خيوط الحرير ، هذا النوع الذي يعد من أفخر الأنواع وأجودها ، وأصعبها نسجا .

وخيوط الحرير من الخيوط التي اعتمدها الأسفار الشعبية لإعداد تعاويذ ، ووصفات سحرية للتعبير عن أحجية لصيانة من يلبسها من أذى الأعمال السحرية ، فالأحجية ضمان بأن العمل السحري خال من الضرر لمن يستخدمه بعدها في منافعه الخاصة.(12)

ونستنتج من هذا أن برنوس الحرير الذي يرتديه العريس يوم دخلته، يحفظه من كل سوء، ويكسبه مميزات خاصة وتفردا ملحوظا.

ولو عدنا لأغاني الختان، نعثر على أغان رائعة ترافق عملية الختان، نقول كلماتها:

طهر يا لمطهر
صح ليديك
لا تجرح أوليدي
يا ارحم والديك

ومن المعروف عن سكان الأوراس الغربي، تفضيلهم إتمام عملية الختان في البيت على مرأى الجميع إلى زمن قريب - ولكن هذا التمسك بدأ يتلاشى شيئا فشيئا.

تتم عملية الختان في الأوراس - على غير العادة - في مناطق أخرى من الجزائر، بطريقة توحى بقدرة هذه الطقوس وعراقتها ، أين يقوم جمع من النسوة بالخروج من البيت ، متجهات إلى إحدى الأراضي القريبة ، وقد حملت إحداهن قصعة بها بعض حبات الحلوى ، مغطاة بقماش أسود، ويملأنها بالتراب وهن يرددن:

بسم الله

ولله

سبقنا

رسول الله

ويعدن بعدها إلى البيت، أين يتم تخنن الطفل فوق تلك القصة، التي يعدن بها مرة أخرى، بعد رشها بقليل من الملح والسكر، إلى نفس المكان، الذي أحضر منه التراب أول مرة وقد غطت بقماش أخضر، ويرددن بعدها الأغنية:

طيشنا لجر والتراب

جبنا المال و الرجالا

إن التوحد مع الطبيعة ، والتمازج مع عناصرها ، سمة بارزة في الأغنية الأوراسية ، حيث تصور هذه الأغنية رمي الحجر والتراب والعودة بالمال والرجال ، إحاء بالظفر بالخصوبة ، وتحقق فعل الإنجاب، بعد أن فدى الصبي نفسه بقليل من دمه ولحمه لآلهة الأرض، التي بالمقابل تضمن له الخصوبة وكثرة النسل ، ويعبر النص السابق- في حقيقة الأمر- عن نوع الفديات المخففة ، المتفرعة عن الفديات البشرية ، الأكثر تعقيدا ، والتي انتشرت في العصر الحجري الحديث.

إن المبدع الشعبي استوحى من عادات ومعتقدات سكان الأوراس ، لب اهتماماتهم وانشغالاتهم، فنجح في رصد كل ما يشكل بنيتهم الفكرية والثقافية والاجتماعية ، ويعكس لنا نفس النص ، تقديس سكان الأوراس الأرض وإسقاط كل ما يتعلق بها على حياتهم الخاصة والاجتماعية ، فهم يجسدون فكرة خصوبة الإنسان ، انطلاقا من خصوبة الأرض، فقد مثلوا عملية البذر والغرس وتهوية الأرض قبل هذا وذاك ، بكل حذافيرها ، وساواها بينها وبين عملية الإخصاب لدى الطفل المختن على الشكل التالي :

المرحلة الأولى: تهوية الأرض وتهيتها للبذر ، تمثلها ذهاب النسوة لجلب التراب وترك تلك الرقعة تنهوى إلى أن يعدن إلى ذات المكان لإعادة التراب ، وتقابلها فترة ختان الطفل إلى غاية بلوغه.

المرحلة الثانية: تتمثل في البذر وتقابلها العودة بالتراب الممزوج بقطرات من دم الطفل ولحمه، و دفنه.

المرحلة الثالثة: وهي الإنبات أو الخصوبة، وتتمثل في ترديد النسوة للأغنية السابقة، إعلانا لتحقيق فعل الخصوبة لدى الصبي.

ومن رموز الطبيعة كذلك ، والتي وظفتها الأغنية الشعبية الأوراسية "الأشجار" ، فالمبدع الشعبي ينحو منحى الرومانسيين في استعانتها بكل ما يمثل الطبيعة ، ولكن بأسلوب أوراسي متميز .

يجهز سكان الأوراس شجيرة صغيرة تسمى "الباندو" للصبي قبل ختانه ، ويملؤون فروعها، بأنواع كثيرة من الحلويات والفواكه وتزين بألوان زاهية ، وتهدى للصبي الذي يصبح المالك الوحيد لها، ولا يحق لغيره أن يلمسها أو يقطف من ثمارها :
تقول الأغنية:

لآلَا دَا الزينةَ الْفَجْرَ .
جمال سيدتي يلوح

كالفجر

المهنتون حضروا

إبؤندانون أوسيند

تشير الأغنية ضمناً إلى شجيرة "الباندو" ، التي أحيطت بقداسة لا مثيل لها ، حيث يمنع الصبي في اليوم الأول من الأكل من شجرته ، وهي في الحقيقة ترمز للعروس الإلهية ، التي لا تكتمل بدونها عملية الإخصاب ، كما ترمز تلك الحلوى المعقدة في جذوعها إلى الثمار أو النسل .

ومما كان سائداً في قبائل إفريقيا ، وفي أجزاء من أوروبا أن العلاقة بين الجنسين ، يمكن أن تستخدم للإسراع بنمو النبات ، كما قد تجسد هذه العادة (شجرة الباندو) عادة واسعة الانتشار بين الأمم المتحضرة القديمة ، والتي تتعلق بزواج الآلهة ، سواء من تماثيل أو كائنات بشرية ، وهي عادة موروثية عن البدائيين من الأمم.⁽¹⁹⁾ ، مما يدل على أن شجيرة "الباندو" ، تمثل عروس الطفل ، لذا يمنع لمسها أو الأكل من ثمارها والتي ترمز إلى عفتها ، وكثرة نسلها .

وهكذا يظهر جلياً ، كيف أن الفرد الأوراسي ، استمد الكثير من رموز عاداته ومعتقداته من الطبيعة التي يحيا فيها ، والتي تعود إلى زمن بعيد ، زمن خشى فيه الإنسان الجفاف والمجاعة ، فراح يفكر في نوع من الفدييات إرضاء لآلهة الخصوبة أو الآلهة التي تتسبب في وفرة الحاصلات الزراعية.⁽¹⁴⁾

إلى جانب هذا النوع من غناء الأفراح ، نجد أغاني الزواج ، التي ترصد جميع عادات الزواج الأوراسي ، بأدق تفاصيلها ومن بينها أغنية تردد في مثل هذه المناسبات، تعبيراً عن الفرح والغبطة:

مبارك مبارك	مَبْرُوكٌ مَبْرُوكٌ
مبارك العرس	مَبْرُوكُ العُرْسِ
أطلق البارود	يُوثَا البَارُودُ
بخرطوش من النحاس	سُوقَرَطَاسُ أنْحَاسٍ
مبارك مبارك	مَبْرُوكٌ مَبْرُوكٌ
مبارك العرس	مَبْرُوكُ العُرْسِ
أطلق البارود	يُوثَا البَارُودُ
بخرطوش من النحاس	سُوقَرَطَاسُ أنْحَاسٍ

لا يخلو العرس الأوراسي من طلقات البارود أبداً ، وزغاريد النسوة وضربات الدف ، وهذه الأغنية تبارك العرس ، وتشيد بصوت البارود ، وخراطيشه النحاسية. وقد يؤدي صوت البارود وظيفة اجتماعية ، تتمثل في كونه إعلاناً لوجود عرس ، وبالتالي فهو بمثابة دعوة جماعية للعرش لحضوره ، أما عن معدن النحاس الذي وظفته الأغنية الشعبية ، فبالتأكيد له دلالة أخرى غير الوصف ، نستشفها من خلال العودة إلى طبيعة هذا المعدن.

النحاس من أقدم المعادن التي تم استخدامها في مختلف الأدوات، إذ يرجع ظهوره إلى آخر العصر الحجري الحديث.⁽¹⁵⁾ ، وقد تحدث جيمس فريزر عنه ، فذكر أن الأرواح الشريرة ، تفرع من صليل النحاس⁽¹⁶⁾. أي أن الأغنية السابقة ، تعبر عن وظيفة طقوسية قديمة لمعدن النحاس ، تتمثل في طرد الأرواح الشريرة عن العريس أو العروس، وتحصينهما من كل مكروه أو أذى سحري.

أما العروس فقد حظيت باهتمام المغني الشعبي ، فرصد كل ما يتعلق بحفل عرسها، ولعل المغنية امرأة، لذا أولتها مثل هذه العناية ، حيث تصور لنا طريقة تلبيس العروس: (جبة العروس، الحلي والمجوهرات، الحذاء) وكذلك تحنية (اليدين، والقدمين). من عادات تلبيس العروس بالأوراس الغربي ، أن تقوم إحدى عمات العريس ، بمساعدة عجوز أخرى من القريبات، بخلع الملابس الداخلية للعروس، وتلبيسها مما أحضره العريس ، وهن يرددن:

السوا سيدتي	سِرْضِمَتَّاسُ إِلَّا لَأَ
مبارك اللباس	ذَ امْبَارَكُ اللَّبَاسِ.

وقد ارتبطت هذه العادة باعتقاد شعبي، يتمثل في إبطال أي محاولة من العروس في سحر العريس، حتى لا يتفطن إن كانت عذراء أم لا ، لذا يحرص أهل العريس تجريدها من كل ملابسها خاصة الداخلية منها التي يعتقد أنها قد تستعمل للسحر.

كما تردد أغنية أخرى بهذه المناسبة تقول كلماتها:

طفلة صغيرة

يالي لابسة جديدا

أطفلة تتمتع

خلي اللبسة تنقطع.

إن أهم وظيفة تؤديها مثل هذه الأغاني ، أنها تصور لنا اعتقادات راسخة في أذهان الناس ، وهي إيمانهم المطلق بالسحر وآثاره السلبية على عقولهم ، وبالتالي أخذ احتياطاتهم قبل وقوعه ، ومن جهة أخرى تقديسهم لقيمة اجتماعية تتمثل في عذرية الفتاة ، أو بالأحرى التأكد منها، بكل السبل.

وتردد أغنية أخرى عند تلبيس المرأة الحلي والذهب، تقول كلماتها:

يا طفلة صغيرة

دارت المقياس

نتهلأوا فيها

لخيار الناس.

وتبدأ الأغنية بنفس المقطع الوارد في الأغنية السابقة، مؤكدة على صغر العروس، التي تعد مفخرة بالنسبة لأهل العريس، أما عند تلبيسها الحذاء، فتغني:

أَيْرُ ضَارَقُ - ارْكَّاسُ

يَسَمُّ نَنْتَعُ هِيْمُورَا

بمعنى ضعي قدمك في الحذاء ، بك نجول البلدان، ويظهر من هذه العادات، قيمة المرأة في مجتمع الأوراس ، أين يحتفل بها وتحاط بعناية فائقة في مثل هذه المناسبات ، وفي ليلة الحناء، تحني إحدى المسنات يدي العروس وقدميها ، وهن يرددن:

حني حنة أبيك

في حياتك وحياة إخوتك

أَيْرُ لِحْنِي نَبَابَمُ

ذِرْ - لِحْيَانْتَمُ ذَايْتَمَامُ

أما حناء القدمين فتردد الأغنية التالية:

ربطت الحناء

في قدمي سيدي

يَمَوْقَاسُدُ الْحَنِي

ذَقْ - نُورَازُ أَلَالَا.

وتتجلى أكثر قيمة الأغنية الشعبية ، ودورها الفعال في تقويم السلوك الإنساني أو الفردي ، في مثل تلك الوصايا التي يتركها ذوي التجارب الحياتية ، والذين أدركوا فلسفة

الحياة وأبعادها، وخاصة أسرارها. وإذا كانت الوصية غالبا ما تكون من الأب لأبنائه، أو من الأم لأبنائها أو غيرهما ، نجدها في هذه الأغنية الشعبية ترد من إنسان حكيم إلى الشباب، استجمع فلسفة حياته في بضع كلمات، تحمل الكثير من المعاني:

أنوصيكم يا شبان

ثلث مسایل في الدنيا

اللبسة وركوب الخيل

والركعة في المدينة

يوصي هذا الحكيم الشباب بثلاثة مسائل هامة في الدنيا ، وهي: الاعتناء بالهنّام ، ركوب الخيل بمعنى الفروسية ، وأخيرا الحج (الصلاة في المدينة المنورة) ، وهي دعوة ضمنية إلى الاعتدال والوسطية في معالجة الأمور الدنيوية ، والابتعاد عن التعصب والتشدد ، فهي وصية تجمع بين الدنيا والآخرة ، دون إفراط وتقریط.

أما من أغاني استدرار المطر، نعثر على أغنية قديمة تقول كلماتها:

المغرفة بين الوديان

أَغْنَجَا جَارَ إِغْزَرَانَ

ياربي إنا ضامئون

يَا رَبِّي نَفُودُ أَمَانُ

يخاطب هذا النص إله المطر ، ويعلمه أن العروس "أغنجا" بين الوديان ، فليقبلها منهم ، ويجود عليهم بالماء والغيث ، ومنه فالأغنية تصور طقسا دينيا قديما، يتمثل في نوع آخر من الفديات ، متفرع عن الفديات الأدمية التي كانت تذبح وتغرق في الوديان أو النهر⁽¹⁷⁾ ، وتحولت العروس الأدمية مع الوقت إلى عروس خشبية ، يصنعها الإنسان ليوهم بها الآلهة ، بأنها فتاة عذراء حقيقية.

وحفلة بوغنجة توارثناها عن الطقوس الأصلية القديمة ، لاستدرار المطر التي كانت تقام من أجل مخاطبة إله المطر أنزار، طلبا للغيث والماء ، مقابل عروس جميلة ، وبمرور الزمن تغيرت المعطيات الفكرية والاجتماعية والثقافية للناس ، فبدأت تتحول هذه الطقوس عن الشكل الأصلي، لتأخذ شكلا جديدا أقل حدة.

ختاما نقول إنها عينة من أغاني الأوراس الأشم ، التي حفظت في الأذهان والصدور، فرغم ما اندثر منها مازالت تصارع فكرة الاستئصال والاستغناء عن كل قديم ، وتشدو بها الألحان في مختلف المناسبات الاجتماعية وتحمل بين كلماتها عادات ومعتقدات الأوراسيين ، وتنقل بصدق طبيعة هذا المجتمع، وأهم خصوصياته ، لذا تحتاج إلى عناية خاصة تتمثل في جمعها ودراستها ، وكذلك غنائها من قبل المغنين، دون تغيير في كلماتها أو لحنها ، لأنها من التراث الغنائي الجزائري المتميز، والذي من المفروض أن يحفظ بأمانة.

الإحالات:

- 1 - انظر: نمر سرحان- أغانينا الشعبية في الضفة الغربية من الأردن- منشورات دائرة الثقافة والفنون ، وزارة الثقافة والإعلام ، ط1، عمان ، 1967م ، ص265.
- 2 - انظر: أحمد علي مرسى- الأدب الشعبي وفنونه - مكتبة الشباب ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، وزارة الثقافة الجماهيرية، (د.تا.)، ص107.
- 3 - انظر: ابن منظور - لسان للعرب- مادة غ ن أ، ج 15، ص139
- 4 - انظر: أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي-العقد الفريد - دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج2، ص45
- 5 - انظر: إبراهيم زكي خورشيد - الأغنية الشعبية في المسرح الغنائي - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ، 2000م ، ص 12
- 6 - انظر: موقع إلكتروني www.Atrightalh.com / خالد الشيخ - الأغنية الشعبية- مفهوم واصطلاحاً - 2006/08/25م
- 7 - محمد الجوهري- علم الفولكلور - الأسس النظرية والمنهجية - ج1، ط4، دار المعارف، 1981م، ص 106
- 8 - انظر: المرجع السابق، ص 100
- 9 - انظر: سعد الخادم - الفن الشعبي والمعتقدات السحرية - مكتبة النهضة المصرية، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. (د.تا)، ص 35
- 10- انظر: المرجع نفسه ، ص 35-36
- 11- انظر: المرجع السابق ، ص50
- 12- انظر: المرجع السابق ، ص50
- 13- انظر: جيمس فريزر - الغصن الذهبي - تر: أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ، مهرجان القراءة للجميع ، 2000م ، ص 40-41
- 14- انظر: سعد الخادم - الفن الشعبي والمعتقدات السحرية... ص32
- 15 - انظر: المرجع نفسه، ص73
- 16 - انظر: جيمس فريزر - الفولكلور في العهد القديم- تر : نبيلة إبراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ج2 ، 1974م، ص 822.
- 17 - انظر: محمد الصغير غانم - الملاحم الباكورة للفكر الوثني في شمال إفريقيا - دار الهدى، عين مليلة، الجزائر (د.تا) ص 13- نقلًا عن:
Génévois Henri. Un Rite d'obtention de pluie (La Fiancée d'Anzar dans actes du deuxième Congrès international d'études des cultures de la méditerranée occidentale S.N.E.D Alger 1987. p 393.